ضياء الدين بن الأثير

حياته - عصره

ضياء الدين بن الأثير (م ٦٣٧هـ)[١]

حياته:

ولد ضياء الدين بن الأثير فى القرن السادس الهجرى فى جزيرة ابن عمر فى شمال الموصل، وجزيرة ابن عمر هذه قرية صغيرة على شاطئ الدجلة الغربى تنسب إلى الحسن بن عمر بن الخطاب[٢] رضى الله تعالى عنهما.

كان أبوه أثير الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم من المقربين إلى أتابكة الموصل، وقد عهد إليه فترة من الزمن بولاية جزيرة ابن عمر، ونشأ ابن الأثير بهذه البلدة الطيبة، ثم انتقل مع والده إلى الموصل، وبدأ به يحفظ القرآن الكريم كغيره من أبناء عصره من المسلمين، ثم تعلم اللغة العربية والحساب والحديث والشعر العربى وغير ذلك من العلوم العربية والدينية.

---

(١) راجع ترجمته فى: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢: ١٠٨ - ٢١٢، والذهبى: تذكرة الحفاظ ٤: ٢٠١، والسيوطى: بغية الوعاة ٤٠٤، وابن العماد: شذرات الذهب ٥: ٦٨٨، واليافعى: مرآة الجنان ٤: ٩٧ - ١٠٠، والبغدادى: هدية العارفين ٢: ٤٩٢، وأحمد محمد عنبر: جولة مع ضياء الدين ابن الأثير فى كتابه المثل السائر، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد.

(٢) معجم البلدان ٣: ١٠٢، والدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ٣١.

وكان من الطبيعي أن يتأثر ابن الأثير بالمركزية الموصلية [1] حيث كانت الموصل مركزا ثقافيا وسياسيا في هذا العصر نظرا لأنها كانت عاصمة لأقوى الولايات الشرقية في الدولة الإسلامية في ذلك العصر، وكان من الطبيعي أيضا أن يواصل ابن الأثير كفاحه في طلب العلم والمعرفة، وأن يأخذ العلم والأدب على مشاهير علمائها في جميع الفروع والمعرفة الرائجة في عصره.

عاش ضياء الدين بن الأثير المستكبر في تلك البيئة الثقافية والسياسية، وكان لها أثرها الكبير عليه، نضجت فيها عقليته، واكتملت شخصيته، فبدأ يمهد الطريق للحياة الجديدة في المجالات السياسية والعلمية والأدبية والاجتماعية المختلفة.

عاش صاحبنا ابن الأثير المتشامخ في الموصل عشرين عاما تقريبا انتقل بعدها إلى الشام، والتحق بخدمة صلاح الدين، ثم انتقل منه إلى ابنه الأفضل بدمشق، وكان الأفضل شابا لم تنضج بعد عقليته، يترك الدولة وأمورها لوزيره الجديد ضياء الدين بن الأثير، ولضعف شخصية الأمير، وتلاعب وزيره الجديد ابن الأثير هذا أفلتت منه ومن وزيره مقاليد الأمور، و لم يتمكنا من الوقوف أمام سيل الحوادث الجارف فجرفهما معا، فانفض من حول الأمير والوزير عدد كبير من الأمراء والقواد، والعلماء والكتاب. قال ابن الأثير: "... وكان الأفضل بعد وفاة أبيه قد أساء التدبير، فأبعد أمراء أبيه وخواصه، وقرب الأجانب، وأقبل على اللعب، وشرب المسكر واللهو، واستحوذ عليه وزيره ضياء الدين بن الأثير

---

(١) سليمان صائغ: تاريخ الموصل ٩٠، ووفيات الأعيان ٣: ٣٨٥، وضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد ٣٥.

الجزرى، وهو الذى كان يحدوه إلى ذلك فتلف وأتلفه، وضل وأضله، وزالت النعمة منهما...»[1].

وكنتيجة طبيعية لجنون الملك الأفضل ووزيره أن اجتمع كبار الأمراء ورجال الدولة من العلماء والقواد ممن طردهم عند عمه العادل فى دمشق، وعند أخيه العزيز فى مصر، وأوغروا صدريهما على الأفضل وابن الأثير، فثارت بذلك نار الحرب بين الأفضل والعزيز، وبعد محاصرة دمشق اضطر الأفضل بإيعاز من العادل إلى إقصاء ابن الأثير من الوزارة، إلا أنه عند ما عاد العزيز إلى مصر عاد الأفضل ووزيره إلى سيرتهما الأولى، فصمم العزيز مرة أخرى بإشارة من عمه العادل على نزع دمشق نهائيا من يد الأفضل، فنزعها منه، وعند ما سقطت دمشق فى يد العزيز استسلم الأفضل، وهرب ابن الأثير مختفيا فى صناديق متاع الأفضل ليلا[2] وقد نجا بذلك من الاستسلام.

قضى ابن الأثير السياسى الفاشل[3] فى دمشق عاصمة صلاح الدين وابنه الأفضل أربع سنين، فرّ بعدها هاربا واستقر به المكان فى الموصل[4]، واتصل بخدمة نور الدين أرسلان شاه الأول، وظل هناك إلى أن أصبح الأفضل سلطانا على مصر بعد وفاة أخيه العزيز، وفى عام ٥٩٦هـ أسرع ابن الأثير بالسفر إلى مصر لينضم

---

(١) البداية والنهاية ١٣: ٩، وكتاب الروضتين ٢: ١٢٠، وأبو الفداء: المختصر ٣: ٨٨.

(٢) يوسف بن قزاوغلى: مرآة الزمان ٨: ٤٤٣، وضياء الدين بن الأثير وجهوده النقدية ٤١.

(٣) الدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ٣٢٤.

(٤) مرآة الزمان ٨: ٤٤٣، وضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد٤١.

إلى الأفضل مرة أخرى، وقد ذكر ابن الأثير هذه القصة فى كتابه " الوشى المرقوم فى حل المنظوم " حيث يقول: " كنت سافرت إلى مصر سنة ست وتسعين وخمسمائة..."[1] .و لم يبق ابن الأثير فى مصر أكثر من عام وبعض عام، حيث تمكن العادل من طرد الأفضل من مصر، وتمكن الأفضل من الهروب من القاهرة، كما تمكن ابن الأثير مرة أخرى من الخروج من مصر هاربا من يد العادل... ثم استقر به المكان فى حلب عام ٦٠٧ [2]، واتصل بخدمة الظاهر، ثم انتقل منه إلى الموصل، واتصل بخدمة أميرها عز الدين مسعود الثانى، و لم يطل بالموصل مقامه أيضا، فذهب إلى " إربل " سنة٦١١هـ، ثم إلى سنجار، ثم عاد أخيرا إلى الموصل سنة ٦١٨هـ حيث استقر به المقام آخر الأمر، وانتهى به المطاف، فقضى فيها بقية الباقية من عمره[3] المضطرب.

التحق ضياء الدين بن الأثير السفير بخدمة بدر الدين لؤلؤ القائم بأعمال دولة ناصر الدين محمود، وظل على هذه الحال إلى أن توفى ناصر الدين محمود، وتولى بدر الدين أمر الموصل، فأوفد ابن الأثير من قبله إلى الخليفة فى بغداد سنة ٦٣٧هـ، وفى هذه الرحلة أو الإفادة قضى ابن الأثير نحبه فى بغداد، وعمره إذ ذاك ثمانون عاما.

---

(١) الوشى المرقوم فى حل المنظوم ١١٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥: ١٦.

(٣) أبو الفداء: المختصر ٣: ١٢٥، وابن العماد: شذرات الذهب ٥: ١٨٧، وضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ٤٩.

عاش ابن الأثير فى الموصل ١٩ عاما حياة استقرار وهدوء، فعكف على ديوان الإنشاء يباشر الكتابة، ويخلد للنقد والأدب والبلاغة، وقام بتأليف أهم كتبه " المثل السائر "[١] وذاع صيته فى كل مكان من الديار الشامية.

عصر ابن الأثير الفضى[٢] :

العصر الذى عاش فيه ابن الأثير عصر انتقال واضطراب.. انتقال فى كل شئ، واضطراب فى كل شئ .. انتقال فى الفكر والأدب والفن، واضطراب فى القومية الإسلامية والعربية، مرحلة القوة السياسية مرت وانتهت بانتهاء الدولة الأموية والعباسية، ومرحلة الضعف والاضمحلال على وشك الانتهاء بانتهاء عصر المغول والتتار، اضطرابات تأتى من الخارج كغارات التتار والبيزنطيين والصليبيين، واضطرابات داخلية بين أهل السنة والشيعة، وبين الدويلات الإسلامية المضطربة هنا وهناك، وتشتت يسيطر على القومية الإسلامية والعربية فى أرجاء العالم الإسلامى فى كل مكان[٣] من ديار الإسلام.

وكان لهذا وذاك كله أثر أو آثار بالغة فى السياسة والفكر والأدب والفن، وقد نشأ ابن الأثير فى هذه البيئة المضطربة سياسيا وعقليا وفكريا، وشارك فيها متأثرا بها.. فى تذوقه، وفى أدبه، وفى نقده، وفى بلاغته وفنونها العديدة !

---

(١) الدكتور شوقى ضيف: البلاغة تطور وتاريخ ٣٢٤، وضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ٥٠.

(٢) الدكتور محمد زغلول سلال:تاريخ النقد العربى من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى٢٢.

(٣) ضياء الدين بن تالأثير وجهوده فى النقد ١ وما بعدها.

حياة اجتماعية مضطربة لتداخل الأجناس المختلفة من عرب وخراسانيين (أفغان وفرس) وأتراك وروم، وكان لعقائد هذه الأجناس العديدة آثارها فى العقائد الإسلامية، كما كان لهذه العقليات المختلفة آثارها على العقلية العربية، وكذلك كانت لآدابها آثار فى الأدب العربى، والحالة الاقتصادية والاجتماعية أيضا كان لها أثرها البالغ فى الحياة العربية فى تلك الآونة من الزمن الغابر.

وفى بحر من الاضطراب والصراع العنيف، وفى بحر من المطاحنة والمعاركة ظهرت – فى عصر ابن الأثير أو قبله بقليل – اتجاهات قوية دفاعة للدفاع عن العقيدة الإسلامية السليمة، وكان التيار الغالب على المسلمين فى هذه الاتجاهات هو مذهب أهل السنة[1]، فقد قضى على المذهب الشيعى فى الدولة الفاطمية، والدعوات العلوية، والإسماعيلية، والفلسفية، والاعتزالية وغيرها من النزعات المذهبية المنحرفة، وتمت الغلبة أخيرا – بعد صراع دام – لأصحاب السنة فى جميع أنحاء العالم شرقا وغربا، فقام أولو الأمر من أنصار السنة بتشجيع العلم والعلماء، وبتقريب الفقه والفقهاء، وبترويج الأدب والأدباء، وقد عاصر ابن الأثير جماعة من هؤلاء الأمراء والملوك والعلماء.

انتعشت الحركة العلمية والأدبية والثقافية بصفة عامة.. من المدارس المختلفة، والمكتبات، والمباحث اللغوية والتاريخية الإسلامية، والرحلات العلمية بين ربوع العالم الإسلامى[2]، وكان لهذه العوامل المختلفة أثرها الفعال فى الأدب

---

(١) المرجع السابق ٧ وما بعدها.

(٢) الدكتور محمد زغلول سلام: ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد ١٠.

والأدباء، والنقد والنقاد، والبلاغة والبلاغيين، وفى الثقافة العامة والمثقفين، ومنهم ابن الأثير، وكان العنصر الرئيسى للثقافة الإسلامية والعربية فى هذه الحركة العلمية هو القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، فأقبل العلماء والأدباء على حفظ القرآن الكريم، والحديث الشريف، وضياء الدين بن الأثير مثل بارز وحى لأثر القرآن الكريم، والحديث الشريف فى الأدباء والنقاد من الناحية الثقافية والكتابية والنقدية والبلاغية[1] وغيرها من ألوان المعرفة العامة.

إن الأدب صورة حقيقية للحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية فى كل أمة من الأمم، كذلك كان الأدب فى العصر الفضى الذى كان يعيش فيه ابن الأثير، وأعنى بهذا العصر القرنين السادس والسابع، وكان هذا العصر، كما قلنا، بالنسبة للأدب والنقد عصر انتقال من مرحلة الضعف والموت إلى مرحلة الحياة والانتعاش، ومن هنا نرى المستشرق العلامة (جب)[2] يصفه بالعصر الفضى بالنسبة للعصر الذهبى السابق فى الأدب العربى.

وأستطيع أن أصف هذا العصر.. بعصر السيف والقلم، وأقصد بالسيف عصر الجهاد، وأقصد بالقلم عصر الكتابة، وهما أى السيف والقلم من أهم المميزات والموضوعات الأدبية والنقدية فى هذا العصر الفضى، كما وصفه المستشرق العلامة (جب) والدليل على ذلك هو ابن الأثير وكتبه، والقاضى الفاضل، وغيرهما من كتاب عصره الذى عاش في ظله.

---

(١) المرجع السابق ٩ – ١٢.

(٢) المرجع السابق ٢٠، و: GIBB: ARABIC LITERAUIRE P.82.

وفى هذا العصر الفضى اجتمع فى ابن الأثير الاعتداد بالنفس[1]، والطموح فى المعالى، وحب الشهرة، واتخذ الكتابة طريقه إلى وصول الهدف، واتخذ النقد وسيلته إلى التقويم، واتخذ البلاغة وسيلته إلى الشهرة العلمية، فابن الأثير أديب، وبلاغى، وناقد، وكاتب ممتاز من الطراز الأول، فدراسة ابن الأثير دراسة لعصره، ودراسة عصره دراسة لابن الأثير لكونه وثيقة الصلة بعصره، وبثقافة هذا العصر الفضى من الأدب والنقد، ومن الفنون البلاغية والكتابية والإنشائية الفنية.

---

(١) الدكتور إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبى عند العرب ٥٩٢، الطبعة الرابعة١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.